الأم قدوة لابنتها

للأديب الأستاذ على السباعى

المدرس بالمدارس الثانوية

هذه فتاة وهـذه فتاة ، لم تجاوز واحدة منهما عتبة دارها إلا مع أمها ، ولكن هاتين الفتاتين مع ذلك مختلفتان جد الاختلاف ، و بينهما من التباين فى الفكر ، وفى الأمل ، وفى النظر الى الحياة ما يبعث على التساؤل و إنعام النظر .

ولقد تكون الفتاتان زميلتين فى مقعد الدراسة ، أو جارتين فى الحى ، أو يربطهما دم مشترك ونسب قريب ، ولكنك إلى ذلك تستمع إلى إحداهما فى شأن من شئون الحياة ، ثم تسمع من الأخرى رأيا يخالفه خلافا ما ، وقد يكون التباين بين الرأيين بحيث يظن من يظن أن ليس بين الفتاتين آصرة ، ولم تجمع بينهما فى يوم ما وسيلة من وسائل تحصيل العلم أو تجربة من تجارب الحياة .

وأذهب الى أبعـد من ذلك فأزعم أن بنتين لأب واحد قد يختلف تفكيرهما ونظرتهما إلى الحياة وتقديرهما للأمور وحكمهما على بعض ما يعرض لهما من شئون الحياة إذا لم تكونا بنتين لأم واحدة ، وليس الشأن كذلك إذا كانتا أختين شقيقتين لأم وأب .

وعلى العكس من ذلك ترى الأختين لأم واحدة وأبوين مختلفين ، أكثر تقاربا فى الميول والأفكار والنظر إلى الحياة .

وفى الريف المصرى ، حيث يجـد الفلاح مشجعـات كثيرة على تعدد الزوجات تعيش الضرتان ، أو الضرائر ، فى بيت واحد ، تحت حماية رجل واحد ، حيث يأكلن على مائدة مشتركة ، وينمن على فراش قريب ، و يؤدين عملا متشابها ، ولكنك مع ذلك ترى الأختين لأمين وأب واحد يختلفان اختلافا يقرب بكل واحدة من أمها قربا ما ، ويبعد بهـا عن أختها ، ولقد تجـد واحدة منهما ، وقد تكون الصغرى ، مطمح أنظار الفتيان ، ومهوى الأفئدة ، يتزاحم عليها الخطاب ، ولا ترى الأخرى إلا منزوية لا تمتد إليها منية ولا تخطر على قلب فتى من فتيان القرية ... إلا أن يكون لأبيها من شخصيته ما يسوّى بين البنتين فى عيون الطلاب !

* * *

هذه المظاهر المتعددة ، وفيها مجال للفكر والنظر ، تفسح السبيل لمن يزعم أن الأم هى البيئة الخاصة لابنتها ، تتأثر بها وتحتذيها أكثر من تأثرها بعامل آخر مما يحيط بها .

وإذا كان من القواعد المقررة عند كل المشتغلين بشؤون الاجتماع ، وشؤون التربية ، أن الأم هى المدرسة الأولى التى يتلقى عنها الولد — صبيا أو فتاة — أول درس من دروس الحياة ، فليس من شك أن تأثير الأم فى ابنتها هو أبعد مدى وأنفذ عمقا من تأثيرها فى ابنها فإن البنت هى الصورة المصغرة للأم ، وهى بطبيعتها الأنثوية أقرب إلى أمها وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ، على حين قد يتمرد الفتى منذ الصغر على أمه حين يشعر أن له طبيعة غير طبيعتها تحبب إليه أن يصطنع أسلوب الرجال فى حديثه وفى عمله وإن لم يبلغ بعد مبلغ الرجال !

ولقد يبلغ تمرد الفتى على أمه مبلغا من الشذوذ يتخذ صورة مؤسفة حينا ومضحكة أحيانا ، وذلك حين يتقوى فى نفسه الشعور بأن طبيعته الذكرية تمنحه الحق فى أن يسيطر سيطرة الرجل ، فثمة الطفل الغيور الذى يأبى على أمه أن تكشف وجهها للرجال فيرعد ويغلى دمه إن رآها مرة تتحدث إلى رجل قد يكون من ذوى قرابتها ، وثمة الطفل المتجاسر الذى يخيل إليه فى بعض المواقف أن عليه وحده حماية أمه إن بدا له أن أحدا يقصدها بسوء ، وثمة الطفل القوى المتآمر الذى يرى عليه أن يقول لامه : لماذا عملت ...... ولماذا لم تعملى ...... ؟

مثل هذا التمرد لا ترى مشهدا من مشاهده فيما يكون بين الأم وابنتها ، إلا فى أحوال شاذة لا تصلح للحكم والاستدلال !

وعلى النقيض من ذلك قد تقف البنت من أبيها موقفا ، يشبه من بعض الوجوه موقف الصبى من أمه ، على خلاف يسير يفسره ما فى طبيعة البنت من الهدوء والدعة ، وما فى طبيعة الصبى من التعالى وحب المناوشة !

وفى هذه الأمثلة ما يؤيد قول القائل : إن البنت هى صنعة أمها ...... !

° ° °

وندع هذا . لننظر نظرة فى بعض مشاهداتنا اليومية ، تعيننى على توضيح ما أنا بسبيله :

هذه أم تعودت أن تغادر فراشها مبكرة فى كل صباح لتنظر فى بعض شئونها المنزلية قبل أن يخرج رب الدار ، فتعد الفطور ، وتشرف على تهيئة تلاميذها للمدارس ، وتحضر الثياب لزوجها ، وتضع برنامجها اليومى .

فإذا خرج الرجل إلى عمله ، والأطفال إلى مدارسهم ، شرعت فى تنفيذ ما رسمت من خطة ...... وينتهى يومها على ما أرادت .

هذه السيدة لم تكن وحدها فى الدار ، فإن وراءها عينا تلاحظها ، عين ابنتها التى تشعر بطبيعتها منذ أدركت أن لها طبيعة غير طبيعة أخيها — تشعر أنها لمثل هذا اليوم يجب أن تعد نفسها ، فيكون لها من هذا الشعور ملاحظة قوية ، وحس مرهف ، ورغبة فى المحاكاة تهيئها لأن تكون ما تكون .

فما ترى أمها حين تراها وهى تتنقل من غرفة إلى غرفة ، ومن عمل إلى عمل ، ولكنها تنظر إلى مرآة تريها ما تكون هى فى غد ...... ولا بد أن تكون كذلك ، أو شيئا يشبه ذلك شبها قويا .

وإذا عملت ظروف أخرى فى نفسها بعد فترة ما ، بتأثير المدرسة ، أو بتدرج الزمن ، فإن هذه الظروف لن تمحو هذه الصورة محوا تاما ، ولا بد أن يبقى منها فى الواعية العاطفة ظل مرسوم ، كالصورة الحائلة تحت ضوء الشمس ، أن تضيع معالمها ويخفى رسمها إلا بمقدار ما يفعل الزمن فى المادة ، ويبقى الصلب والأساس .

وهذه أم من طراز آخر : كبعض من نعرف من السيدات فى مصر ، لا ترى البيت والزوج والأطفال إلا لهوا من اللهو ومتاعا من متاع الحياة ؛ تقضى نصف نهارها أمام المرآة ونصفه فى الشارع ، من متجر إلى متجر ، أو من زيارة صديقة إلى زيارة صديقة .

هذه السيدة كذلك لا تعمل ما تعمل بنجوة عن الرقيب ، إن عينين نفاذتين تلاحظانها بدقة ، أن عينى ابنتها لا تطرفان ، شاعرة مثل شعور أمها أن هذه هى الأمومة !

أرأيت مرة فتاة فى العاشرة تمشى فى الشارع مصبغة الشفتين محمرة الخدين مزججة مطرزة ؟

إن هذه الفتاة لا تعرف لهذا الذى صنعت بنفسها معنى كالمعنى الذى تحسه أمها حين تجلس إلى المرآة ساعة أو ساعات تبادلها الرأى فيما تبدو به جميلة فاتنة . . .

إن غريزتها لم تنضج بعد ، فما يتأتى لها أن تحس إحساس أمها حين تتبرج وتتزين ، ولكنها فعلت بنفسها ما فعلت ، أو فعلت بها أمها ، لأن هذا هو فن الأنوثة ، أو فن الأمومة ، على مقدار ما يدرك عقلها الصغير .

وحين يمضى بها الزمن إلى غايتها فتصير سيدة فى بيت ، لن يكون أمام عينيها نموذج تحتذيه وتنسج على منواله ، إلا هـذا النموذج الذى شاهدته طفلة ، وتمرنت عليه صبية ، وتعودته فتاة ، ومهما تهذبها التربية ، ومهمايعاملها الزوج ، ومهما تتطور بها ظروف الزمان ، فلن تستطيع قوة فى الوجود أن تباعد بينها وبين هذه الصورة ، أو تحجبها ، إلا بمقدار ما تتنفس على صفحة المرآة المصقولة ؟ ثم تسطع الصورة !

الأم وبنتها ! ما أشبه الليلة بالبارحة ؟

إن أسطورة من أساطير بنى إسرائيل ، تزعم أن حواء لم تكن امرأة واحدة ، ولكنهما امرأتان خلقهما الله على مثال واحد ، فزوج آدم واحدة وترك الأخرى للشيطان ، فلما أراد إبليس أن يبلغ مبلغه فى الكيد لآدم ، زين له الأخرى . . . فولدت له . . . فمن بناتها فى الأرض بنات ، ومازال فى الأرض من بنات حواء الزوجة . . . !
ما أبدعه رمزا يدل دلالته وينطق بحكمته .

إن حواء التى ولدت شهيرات النساء اللاتى ضربن أرفع الأمثال فى العقل والتصرف وحسن التدبير ، غير حواء التى ولدت من لا أسمى من بنات الهوى والدلال .

إن البنت سر أمها ، والولد سر أبيه .

***

ويقول قائل : إننا لنرى أمهات يتعلمن من بناتهن ، وبنات ليس منهن من تشبه أمها . . .

فلا أنكر قول من يقول ، فما يخفى على أن البنت تتعلم من أمها وتعلمها ، وإن تبادل التأثير بينهما لمما يقوى الرأى الذى أرى ، فإن الطبيعة المشتركة هى التى جعلت من كل منهما قدوة ومقتديا ، ولو لم تكن هذه الشركة ما كان التقليد والمحاكاة .

ولكنى أنكر أن تكون بنت ليس فيها مشابه من أمها ، وإن بدا ذلك أول ما يبدو للنظرة الخاطفة !

هذه العجوز التى لايعنيها من أمر شىء ، إلا أن تتنقل بين غرفة النوم والمطبخ وغرفة المائدة ، هى بلا شك ، غير هـذه السيدة التى ترى لهـا فى البيت أعمالا غير ذلك ، إنها ابنتها ، ولكن النظر العابرة تباعد بينهما فى رأى العين .

ولكن ، اجلس ساعة إلى هذه العجوز المدبرة واسألها أن تقص عليك من ماضيها . . .

ثم اجلس إلى هذه الشابة . . . وازن بين رأى ورأى ، وقصة سمعت من الأم ، وقصة سمعت من ابنتها ، ثم ابحث عن الفرق هناك . . .

حدث كليهما على انفراد حديثا من أحاديثك ، ثم اسأل كل واحدة منهما الرأى فيما سمعت وضع الرأيين فى كفتى ميزان . . .

اعرض عليهما قضية للحل ثم استمع لما يحكمان . . .

لا يعنينى كثيرا أن أعرف ماذا قالت الأم وماذا قالت ابنتها فقد تكونان مختلفتين فى ظاهر القول ، ولكن الذى يعنينى أن نكون نقادا يرد الجواهر إلى أصولها ، ويحلل كل رأى إلى عناصره ، ويرجع كل حكم إلى العاطفة التى كونته ، وأنا زعيم بعد ذلك أنك ستعرف ، وتحكم ، وترى الرأى الذى أرى : أن البنت سر أمها !

أيتها الأمهات ، ليتكن تدرين ! .

على السباعى